شعرية الهوامش في الإبداع الأدبي
(الرواية نموذجا)

☚الهوامش عتبة نصية:

غالبا ما تلحق الهوامش بالنص الإبداعي بصفة عامة، والنص الروائي بصفة خاصة، في أسفل الصفحة تهميشا وتذييلا وإلحاقا، لإضاءة المتن المركزي ، وتفسيره من جميع جوانبه: اللغوية، والدلالية، والتاريخية، والمعرفية ، والاصطلاحية. و تشكل كذلك نصا مستقلا بذاته، على الرغم من موقعه في هامش المتن. وغالبا، ما يكون النص الروائي محاطا بسور فاصل بين نصين: نص أساس، ونص ملحق. فالأول يشكل مركزا بؤريا ونوويا، والثاني يمثل نصا محيطا، يأخذ وجوده الحقيقي بوجود الأول. والعلاقة بينهما جدلية وتكاملية وإشعاعية، تتمثل في الإضاءة التوضيحية والتفسيرية والتأويلية.

وعليه، يعد خطاب الهوامش أو الخطاب الهامشي من عناصر النص الموازي، ويعتبر أيضا من أهم ملحقاته الداخلية التي تحيط بالنص الأساس، ومن المداخل الأساسية للإمساك بدلالات النص السطحية والعميقة، فضلا عن كونه من العتبات المهمة للولوج إلى العمل الإبداعي، قصد تطويقه من جميع النواحي النصية، والإحاطة به بناء وموضوعا ورؤية .

هذا، ويعد الهامش – حسب جيرار جنيت(G.Genette)- حالة نصية طباعية إحالية ومرجعية، ترتبط بكلمة، أو عبارة، أو فقرة، أومقطع، بطريقة محددة أو غير محددة [٢٠٧]. وتوضع الهوامش، باعتبارها ملاحظات وتعليقات، عادة " خارج جسم الصفحة، في أسفلها، وأحيانا في آخر الفصل أو في آخر الكتاب. وهذه الظاهرة تدعو القارئ إلى مطالعة النص مرتين. مرة أولى بقراءته الجملة مباشرة، ومرة ثانية عندما تدعوه الملاحظة إلى ذلك. إن هذا الفصل بين منطقتين من النص، إحداهما

---

[207] - G.GENETTE : **SEUILS**, Collection Poétique, SEUIL, PARIS, 1987, p : 293.

اختيارية، والثانية إلزامية، يعبر غالبا عن فصل بين منطقتين من الجمهور الذي يتوجه النص إليه. فعندما نقدم استشهادات من لغة أجنبية، ثم نترجمها، فذلك لأننا نعتبر أن بعض القراء قد فهموا من أنفسهم، وأن الباقين يجهلون اللغة الإسبانية أو الفنلندية، وهم بحاجة إلى هذا الدوران. وكذلك، عندما يريد الكاتب أن يكون في متناول الجميع، وأن يحمي نفسه في الوقت ذاته من انتقاء الأخصائيين، فإنه يعمد إلى معالجة التقاط الحساسية في مجال صغير مخصص لذلك"[٢٠٨].

وإذا كانت الملاحظة تتعلق بكلمة واحدة من النص الأساس، فإن التعليق غالبا ما يتعلق بكامل النص. فلا يعود هنالك مبرر لوضع إشارة لهذه الكلمة أو تلك، إذ يكون لدينا التفسير الهامشي[٢٠٩] . ويترجم الهامش كذلك دلالات النص الرئيس ترجمة جزئية أو كلية[٢١٠]. كما أن" وضع التفسيرات في أسفل الصفحة هو الذي يولد فينا الميل إلى عدم مراجعتها، إلا بعد قراءة النص بمجموعه .ولكن عندما يكون الشرح أو التعليق موضوعا إلى جانب النص، فإن الحركة العادية للقراءة تجعلنا نصادفه فيما نحن نتابع القراءة. ومنذ ذاك، يمتد التعليق، ويطغى على المقال بكامله .[٢١١]"

ويعني كل هذا أن الخطاب الهامشي عبارة عن نص مواز ومكمل للنص الإبداعي، يقوم بدور الشرح، والتفسير، وإضاءة النص، سواء أكان النص المشروح أو المفسر أو المضاء نصا شعريا أم روائيا أم دراميا.

☚ مفهـوم الهـامش:

يعرف الهامش بأنه ملفوظ لغوي قد يكون كلمة، أو عبارة، أو جملة، أو مقطعا، أو فقرة، أو نصا...فليس للهامش حجم نصي محدد، ويتحدد بكونه مرجعا جزئيا مرتبطا بالنص بشكل من الأشكال[٢١٢]. ويتقابل الهامش مع المقدمة أو التصدير أو التقديم (Préface).بمعنى إذا كانت المقدمة توجد

---

[٢٠٨]- ميشال بوتور: **بحوث في الرواية الجديدة**، ص:١٢٣.

[٢٠٩]- ميشال بوتور: نفسه، ص:١٢٣ .

[210]- GERARD GENETTE : **SEUILS**, p : 293 .

[٢١١]- ميشال بوتور: نفسه، ص:١٢٣.

[212] - G.GENETTE : Ibid, p : 293.

في مستهل النص، فإن الهامش يوجد في أسفل النص.وعلى الرغم من هذا الاختلاف الشكلي الموقعي، فبينهما علاقات تكاملية أساسها التقديم والشرح والتفسير والتوضيح. زد على ذلك، فالهوامش عبارة عن نقط تفصيلية، وملحقات توضيحية، لما هو عام ومجمل وغامض داخل النص. وقد يرد الهامش في أسفل الصفحة في شكل أرقام، وحروف، وأيقونات، وكتابات، وملاحظات، وعلامات تقنية وفنية وجمالية، إما بشكل مختصر ومقتضب، وإما بشكل مفصل وموضح بدقة.وللتوضيح أكثر، فالهوامش عبارة عن إحالات مرجعية ، يراد من استعمالها، والاستعانة بها، إما التوثيق الببليوغرافي والتأكد العلمي، وإما الشرح والإضاءة والتوضيح. وغالبا ما تفصل منطقة الهامش عن منطقة المتن بخط متصل أو منفصل ، في شكل سور أو سياج ، يفصل بين ناحيتين من الصفحة: ناحية المتن، وناحية الهامش.

☚ تاريـخ ظاهـرة الهوامـش:

ارتبطت ظاهرة الهوامش بالكتاب منذ القديم- منسوخا ومخطوطا ومطبوعا-، من خلال عمليات الشرح ،والتعليق، والتوضيح، والتحشية. فكان لكل متن نصي: هامش، وتحشية، وتعليق، وملاحظات تذلل صعوبات النص، وتسهل عملية الفهم والتفسير، وتبسط تلقي العمل الإبداعي، واستهلاكه، وحفظه، وإعادة إنتاجه.ويمكن" اعتبار طباعة الروايات التمثيلية أو النصوص المسرحية حالة خاصة للبناء الهامشي. فقد كانت أسماء الأشخاص أو الممثلين توضع - فيما مضى- في الهامش، فلا تشكل جزءا من النص المسموع؛ فذكر الأسماء ضروري في النص الذي تقرأه، ولكننا لا نحتاج إلى هذه الأسماء في النصوص التي تقرأ علينا، فهي تدلنا كيف أن نقرأ. وبعد ذلك، أخذوا يضعون الاسم منفردا في نصف السطر، وهذه طريقة أخرى لفصله عن جسم النص [٢١٣]". وإلى جانب هذه الملاحظات الهامشية، تضاف هوامش وملاحظات خاصة بالسينوغرافيا، والديكور ،والفضاء المسرحي، وغيره .....

---

[٢١٣]- ميشيل بوتور: نفسه، ص: ١٢٣.

ويرى جيرار جنيت بأن مصـــطلح الهامش (Note) لم يظهر في قواميس الثقافة اللغوية الغربية إلا في القرن السابع عشر(1636م)، كما يتبين ذلك جليا في قاموس روبير (Robert) . بل تمتد الهوامش إلى العصور الوسطى، حيث كانت النصوص تتموقع في وسط الصفحة، وتحاط بنصوص مكتوبة في أسفل الصفحة، في شكل توضيحات، وإضاءات، وتعليقات، وشروح، وتفسيرات...[٢١٤]

ومن أهم الكتب الغربية المعروفة بالهوامش كتاب (الإنجيل) الذي خضع لمجموعة من الشروح والتفسيرات والتأويلات، كما خضعت لها باقي الكتب السماوية الأخرى كالتوراة، والقرآن الكريم. ومن ثم، فقد اغتنى خطاب الهوامش ثراء واهتماما وعناية مع القرن التاسع عشر والقرن العشرين، بظهور الدراسات الأكاديمية والأبحاث الجامعية التي استوجبت التوثيق العلمي الموضوعي، بوضع الملحقات والملاحظات في أسفل النص أو المتن، ويسمى هذا بالتوثيق الببليوغرافي. وكانت الهوامش تأخذ النصف الآخر من الصفحة، بينما النصف الآخر مخصص للنص الرئيس. علاوة على ذلك، كانت توجد ملاحظات فرعية، توضع على ملاحظات المتن الأصلي. زد على ذلك، كانت الهوامش توضع إما في أسفل النص، أو في آخر الفصل، أو بين قوسين داخل المتن، أو في آخر الكتاب في شكل ملاحق، وذيول، وفهارس مكملة. وكانت الهوامش توضع في النسخة الأصلية الأولى، أو توضع في النسخ المتتالية أو المتعاقبة. وقد كانت هذه الهوامش مختصرة ومقتضبة في بعض النصوص، ومفصلة ومسهبة في بعض النصوص الآخرى.

وإذا كان خطاب الهوامش قد هيمن على الجنس الدرامي والتخييل الشعري، فإن الخطاب الروائي قد بدأ بدوره يستفيد من تقنية الهوامش، سيما مع النصوص الروائية الجديدة والحداثية التي انزاحت عن الكتابة السردية الكلاسيكية الخالية من هوامش المعطى الثقافي الذهني ، واستبدلت كل ذلك بكتابة موثقة موضوعية وتخييلية، مليئة بالإحالات المرجعية والمصطلحات التقنية ، وحبلى بالمعرفة الخلفية والخطاطات التناصية و المستنسخات النصية، بله عن المقتبسات المسيجة بالمراجع

---

[214] - GERARD GENETTE : Ibid, p : 294.

المولدة للنص الإبداعي، حتى أصبحت الرواية الجديدة تجمع بين بعدين متقاطعين: جمالي وثقافي..
هذا، وتختص الهوامش ، في الخطابات العلمية والأدبية بالتوجيه، وإضاءة القراءة، والمساعدة على الشرح والتأويل، وتحديد سياقات المتن الوظيفية، واستكشاف تجلياتها المرجعية التي تحكمها، وتجعل منها تمهيدا لزاوية أو زوايا التناول التي يغتني فيها. وإذا كان المتن النصي مبنيا على التكثيف والاختزال والغموض في كثير من الأحيان، فإن الهوامش تساعد على توضيح ماهو غامض، أو تقدم إضاءات هادفة وبناءة للمتلقي قصد فهم النص وتفسيره...
وحتى في حال عدم وجود الهوامش والملاحظات والتعليقات في أسفل الصفحة، وغياب التفسيرات في الإطار الهامشي، " فإن الناشرين يتوجون عادة جسم النص في الصفحة ببضع كلمات تسمى"عنوان جار". وفي أغلب الحالات، يكون هذا العنوان عنوان الكتاب نفسه. يذكر به باستمرار، كأنه مرمى السلاح- يقول بوتور -MICHEL BUTOR إلا أن هذا العنوان، خلال القرن التاسع عشر خاصة، كان يتغير من صفحة إلى أخرى، مذكرا بعناوين الفصول، أو مميزا كل صفحة عن مثيلتها، أوملخصا إياها، ليسمح للقارئ بأن يطالعها بارتياح. وهكذا ، نرى أنه يمكن إحاطة جسم الصفحة بسور من الكلمات تحميه، وتشرحه، وتدافع عنه، إلا أن ترتيبات كهذه تكلف كثيرا، ولا نراها في أيامنا الحاضرة إلا في المؤلفات العلمية: الملخصات، والأبحاث، والأطروحات، تلك الكتب التي تتحكم فيها من الناحية الأدبية، ويا للأسف، الروتينية البغيضة!"[٢١٥].
وهكذا، نستنتج بأن ظاهرة الهوامش ظاهرة قديمة ، ارتبطت ارتباطا وثيقا بالكتاب، مهما كانت طبيعته، وقد عرفتها الثقافة العربية بشكل من الأشكال، فأصبح الكتاب أو النص مسيجا بنصوص ثانوية في شكل هوامش، وحواش، وتعليقات، وحواش فوق الحواشي، وهلم جرا. ولن تحظ الهوامش بالاهتمام الكافي إلا مع ظهور الكتاب المطبعي، وتطور البحث العلمي والأكاديمي الذي يستوجب وضع ملاحظات أو هوامش توضيحية في أسفل النص ، بغية التوثيق، والتوضيح، والشرح، وتنقية المتن من الزوائد ، وتشذيبه بوضع الملحقات في أسفل النص.ومن هنا، فقد

---

[٢١٥]- ميشال بوتور: نفسه، صص:١٢٤-١٢٥.

استفاد الإبداع الأدبي ، وخاصة الرواية، من هذه التقنية الفنية والجمالية والموازية، حينما تحول إلى بحث وجهد وممارسة عملية قائمة على التنقيب والتخطيط والتدبير.

☚الاهتمـــام بالهوامـــش:

لقد أولت الشعرية السردية الحديثة عتبات النص الموازي اهتماما كبيرا، بما فيها المناصات الداخلية المجاورة للنص الروائي بصفة عامة، والهوامش الملحقة بالمتن الإبداعي بصفة خاصة. ومن أهم الذين اهتموا بخطاب الهوامش نذكر: جيرار جنيت في كتابه(**العتباتSEUILS**)[٢١٦]، وميشيل بوتور(MICHEL BUTOR) في كتابه(**بحوث في الرواية الجديدة/Essais sur le roman**)[٢١٧]**...**

بيد أن الاهتمام بشعرية الهوامش في الثقافة العربية الحديثة والمعاصرة مازال ضئيلا، باستثناء بعض الدراسات التي تعد على الأصابع، مثل دراسة جميل حمداوي (مقاربة مناصية لرواية(أوراق) لعبد الله العروي) (١٩٩٨م)[٢١٨]، ودراسة بنعيسى بوحمالة (**أيتام سومر في شعرية حسب الشيخ جعفر)** (٢٠٠٩م)[٢١٩]، ودراسة رشيد بنحدو **(جمالية البين-بين في الرواية العربية)** (٢٠١١م)[٢٢٠]...

هذا، ويمكن مقاربة الهوامش في أي خطاب أدبي أو فني من خلال أربعة مرتكزات أساسية، ألا وهي: البنية، والدلالة، والوظيفة، والقراءة السياقية.

---

216 - G. GENETTE **: SEUILS**, collection poétique Seuils, Paris, 1987, pp : 293-31٥.

٢١٧- ميشيل بوتور: **بحوث في الرواية الجديدة**، ترجمة: فريد انطونيوس، منشورات عويدات ، بيروت، باريس،الطبعة الثالثة،1986 م ؛صص:١٢٢-١٢٥.

٢١٨- د.جميل حمداوي: **مقاربة مناصية لرواية أوراق لعبد الله العروي**، مطبعة بن عزوز بالناظور، المغرب، الطبعة الأولى سنة ١٩٩٨م، صص:٦٤-٧٠.

٢١٩- د.بنعيسى بوحمالة: **أيتام سومر في شعرية حسب الشيخ جعفر**، الجزء الثاني، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى سنة ٢٠٠٩م،صص:٦٨-٨٥.

٢٢٠- د.رشيد بنحدو: **جمالية البين- بين في الرواية العربية**، منشورات مؤسسة نادي الكتاب المغرب، مطبعة الكتاب بفاس، الطبعة الأولى سنة ٢٠١١م، ص:١٩٦.

☚أنــواع الهوامــش:

يمكن الحديث عن أنواع عدة من الهوامش، نحصرها فيما يلي: هوامش التفسير، وهوامش التعليق، وهوامش التوثيق، وهوامش الشرح، وهوامش النقد، وهوامش الترجمة...ويمكن تصنيفها أيضا إلى ملاحظات، وشروح، ومترجمات، وتعليقات، وببليوغرافيات. أما جيرار جنيت، فيرى أن ثمة أنواعا أربعة من الهوامش أو الملاحظات (Notes:)، وهي[٢٢١]:

❶ الهوامش الأصلية، أو الهوامش المتعلقة بالطبعة الأولى للعمل الأدبي؛
❷ الهوامش اللاحقة أو هوامش الطبعة الثانية؛
❸الهوامش المتأخرة التي تلتصق بالكتاب أو العمل في آخر طبعاته؛
❹ الهوامش التي تظهر وتختفي. ويعني هذا أن هناك ملاحظات هامشية تظهر مع نص إثر طبعة معينة. وبعد ذلك، تختفي في طبعة أخرى.

ويمكن الحديث أيضا عن هوامش إبداعية تخييلية مرتبطة بالنصوص الإبداعية والمنجزة فنيا، كالشعر، والمسرحية، والرواية، والقصة القصيرة...، وهوامش وصفية موضوعية مرتبطة بالأبحاث العلمية، والدراسات الأدبية والفنية ،والرسائل والأطاريح الجامعية، والأعمال الأكاديمية. ومن جهة أخرى، توجد هوامش أخرى، كهامش الكاتب، وهامش الطابع/الناشر، وهامش السارد، وهامش القارئ، وهامش المترجم، وهامش المحقق، وهامش الناقد، وهامش الناسخ...

☚ وظائــف الهوامــش:

من المعروف أن للهوامش مجموعة من الوظائف الموازية التي يمكن إجمالها في: وظيفة التوثيق(الإشارة إلى المصادر والمراجع)، والملاحظة، والتعليق، والإضاءة، والتوضيح، والشرح، والتفسير، والإخبار، والإعلام، والترجمة، والتعريب، والتحشية، والتأويل،

[221] -G.Genette : Ibid, pp : 295-296.

والتفصيل، والتدقيق، والتوسيع، والأرشفة، والتسوير، والإحالة المرجعية، واستكمال البحث، بله عن وظيفة التأشير السيميائي، والتخييل، والتأطير، وتبيان السياق الذهني والنصي، وتعميق معلومات النص وحقائقه ومعطياته. كما أن الهوامش هي استشهادات وإجابات لأسئلة ممكنة يطرحها المتلقي أو المتقبل ، قد تكون نقدية، أو توثيقية، أو معرفية، إلخ... زد على ذلك، فالهامش تركيز على نقط معينة قد تكون غامضة أو مبهمة، أو غير واضحة بالشكل الكافي، تستوجب الشرح والتوضيح والتفصيل والتدقيق، وخاصة شرح المصطلحات والمفاهيم التقنية، مع تسليط الأضواء على نظريات وتصورات جديدة وحداثية. ويرى الباحث المغربي الدكتور بنعيسى بوحمالة الرأي نفسه الذي يراه جيرار جنيت، ألا وهو أن الهامش يقوم بالدور نفسه الذي تؤديه المقدمة" وبصدد الهامش، تحديدا، يظهر أن الدافع الأساسي إلى تبنيه، في جل التجارب الإبداعية، هو رغبة المبدعين في رسم محيط تقبلي يرونه ناجعا لإنتاج مقروئية منصفة لتجاربهم هذه.فدرءا لأية إسقاطات، أيما تعسفات تأويلية يعهد إلى الهامش بتسطير مجموعة من الإشارات المنورة لما يعتقد أنه غامض في النص، والمستدركة لما يظن أن هذا النص قد سكت عنه أوفاته التلفظ به، مع بثها لمجموعة من الانتواءات التي يلتمس، ضمنيا، قراءة النص على هدي منها.إن الهامش يلعب، وفقا لهذا، الدور نفسه الذي تلعبه المقدمة، لما تكون بقلم المبدع تدقيقا، وذلك من حيث الإبانة عن خلفيات بعينها، ومقاصد بذاتها، أو من حيث التصميم على توجيه القراءة وجهة مرغوبا فيها يتموضع معها النص في قلب تفكير صاحبه أولا، وبعدها لاضير في أن تأخذه المعارف والحساسيات والأذواق، على تباينها، المأخذ الذي تريده، وترتئيه ملائما لأسئلتها وشواغلها وهواجسها.[٢٢٢]"

وهكذا، يتبين لنا بأن للهامش وظائف نصية عدة، وأهمها وظيفة الفهم، والتفسير، والتأويل، والتوثيق، والاستكشاف...

---

[٢٢٢]-د.بنعيسى بوحمالة: **أيتام سومر في شعرية حسب الشيخ جعفر**، الجزء الثاني، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى سنة ٢٠٠٩م، ص:٦٩.